البراغماتية

الحياة العقلية والتجربة ليس الغرض منها العلم بل المنفعة، وتعمل الصيغ العقلية لحفظ وجوده واستكماله، فالعقل عند البراغماتيين غائي في جوهره يتجه إلى العمل لا إلى النظر وظهرت هذه الفلسفة في إنكلترا وأمريكا.

وأكبر الفلاسفة الذين أكدوا على هذه الفلسفة النفعية (البراجماتية) وليم جيمس وسماه الفلسفة العملية وذلك في كتابه (مبادئ علم النفس).

واعتبر أن أهم قانون في علم النفس هو قانون المنفعة لأن أفعالنا التلقائية مرتبة بالطبع لخيرنا، وقلب وليم جيمس علم النفس رأساً على عقب.

وأما البراجماتزم فمذهب يضع العمل مبدأ مطلقاً فالمذهب العملي أوسع نطاقاً من المذهب الواقعي ويتوصل إلى التجربة الدينية لأننا نشكل عوناً إلهياً لمعاناتنا لتغيير مصير الإنسان، والحياة الباطنة فيها حدس أصيل لها آثار نافعة والإله الذي نقبل منه المدد والعزاء ليس إلهاً مفارقاً ولا إلهاً متحداً بالعلم لأن الإله المفارق الكامل الثابت لا يدخل في علاقة مع الإنسان، وإذا بدت الأحادية مقاربة بين الله والإنسان فليس الأمر كذلك في الحقيقة، إذ أنها تميز بين الله بما هو لا متناه والله بما هو صانع الطبيعة؛ أي بين الوحدة الميتافيزيقية للوجود وكثرة الموجودات المتناهية. ويؤكد على النزعة الصوفية ما يراه جون ديوي وهو هيجلي يرى أن قلق الفكر الحديث ناشئ من التعارض بين المثل الأعلى والواقع، أو بين الروح والطبيعة، وأراد أن يحقق الوحدة الروحية. له كتاب (العقل الخالق) (طلب اليقين) وهو يعتبر المعرفة آلة أو وظيفة في خدمة مطالب الحياة وهو داعية قوي التأثير إلى الإيمان بفاعلية الفكر وبالروح الديمقراطية وهو ماض مع العقلية الأمريكية المتجهة إلى العمل والحرية.

وجون ديوي هو الزعيم الروحي للبراجماتية أو (الذرائعية) وتأخذ الكثير من مبادئ الميكيافيلية (الغاية تبرر الوسيلة) وجون ديوي كان له أكبر الأثر في التعليم وخاصة في كتابه (الديمقراطية والتعليم).

النشأة والتطور:

لبثت الفلسفة دهراً طويلاً تسبح في سماء الفكر المجرد، لا تصغي بآذانها إلى الحياة العملية التي تعج بأصدائها أرجاء الأرض جميعاً، ولا تحفل بالواقع الذي تراه الأبصار إلا قليلاً. فقد قصرت جهودها على جوهر الأشياء في ذاتها، وتنوعت نظرياتها وكان مصير الكثير منها الفشل.

حتى جاء زمن صعود نجم الولايات المتحدة، التي بدأت تفرض نظامها ونظرتها في جميع مرافق الحياة على العالم أجمع، بما فيها الفلسفة التي لم تنج من تأثيرها. والفلسفة بصبغتها الأمريكية تمقت البحث النظري المجدب العقيم، وتريد أن تنحو بالفكر منحاً جديداً لا يكون من شأنه كنه الشيء ومصدره؛ بل نتيجته وعقباه.

فكانت الفلسفة البراغماتية، وهي أكبر تجسيد للنظرة الأمريكية للفكر والمعرفة، فهي فلسفة أمريكية بامتياز.

ولا شك أن دراسة هذا المذهب مهمة للغاية، لا سيما إذا علمنا أنه المحرك الأول للسياسة الأمريكية في عصرنا هذا، مع العلم أن نشأته الأولى كانت على أرضها.

والبراغماتية: اسم مشتق من اللفظ اليوناني (Pragma) ومعناه العمل، وهي مذهب فلسفي يحاول تطبيق الأساليب العلمية على الفلسفة، وتتركز فكرتها الأساسية على أن أي معنى أو حقيقة لأي فكرة ما تتحدد بتأثيرات

الفكرة في الممارسة والسلوك، كما أن حقيقة كل المفاهيم لا تثبت إلا بالتجربة العلمية.

وتقرر أن العقل لا يبلغ غايته إلا إذا قاد صاحبه إلى العمل الناجع. فالفكرة الصحيحة هي الفكرة الناجحة، أي الفكرة التي تحققها التجربة، وكل ما يتحقق بالفعل فهو حق، ولا يقاس صدق القضية إلا بنتائجها العملية[1].

ومعنى ذلك كله أنه لا يوجد في العقل معرفة أولية تستنبط من خلالها نتائج صحيحة بصرف النظر عن جانبها التطبيقي؛ بل الأمر كله رهن بنتائج التجربة العملية التي تقطع مظان الاشتباه، وإذا كانت الحقائق العلمية تتغير بتغير العصور، فالصادق في الحاضر قد يصبح غير صادق في المستقبل، ونتيجة ذلك واضحة جداً وهي أن صدق القضايا يتغير بتغير العلم، وأن الأمور بنتائجها، وأن الحق نسبي أي: منسوب إلى زمان معين ومكان معين ومرحلة معينة من مراحل العلم. فليس المهم أن يقودنا العقل إلى معرفة الأشياء؛ وإنما المهم أن يقودنا إلى التأثير الناجح فيها.

ومن فروع البراغماتية: مذهب «الأداة»، وهو الذي يرى أن النظرية أداة أو آلة للتأثير في التجربة وتبديلها، والمعرفة النظرية وسيلة للسيطرة على المواقف الشاذة، أو وسيلة لزيادة قيمة التجارب السابقة من حيث دلالتها المباشرة، كما تسمى أيضاً: «الذرائعية» لأنها تتخذ من الأفكار ذريعة للحياة على نحو أفضل[2].

---

(1) انظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا (1/ 203 ـ 204).

(2) انظر: الموسوعة العربية العالمية، مجموعة مؤلفين (10/ 620).

التأثر والبيئة:

تعد الولايات المتحدة الأمريكية موطن البراغماتية الأم، حيث ظهرت هناك كما تبين، ولقيت انتشاراً لم تصادفه فلسفة من قبل، وقد تبلورت الخطوط العريضة لهذه الفلسفة في سبعينيات القرن التاسع عشر، في مؤلفات عالم المنطق الأمريكي تشارلز بيرس، ثم تطورت على يد وليم جيمس، ويعتبر جون ديوي الزعيم الروحي للبراغماتية المعاصرة في أمريكا.

والأمريكيون مغرمون بالعلم والتفكير والبحث وراء القضايا والنظريات العلمية، ولهم في كل مجال رأي ونظر، ويتميزون عن غيرهم بغرامهم للتطبيق، وافتتانهم بالنتائج الواقعية للأشياء. ونجدهم يسارعون إلى تطبيق أي نظرية علمية تُكتشف؛ بغية معرفة صدقها، وماهية الآثار الناتجة عنها وفائدتها في الحياة الراهنة، فإذا لم يكن لها نتائج في الحياة والبيئة التي يعيش فيها الأمريكي، فهي مجرد نظرية تضاف إلى سابقاتها وتركن جانباً.

ويتميز الشعب الأمريكي بحب المجازفة والاستهتار بالمخاطر، وليس ذلك عن شجاعة؛ بل لمجرد الرغبة في مشاهدة النتائج العملية التي تترتب على هذه المخاطرة، كما أنهم يحبون الاستمتاع بالحياة، ويشكل النجاح المادي لهم غاية في ذاتها لأنه نوع من تطبيق النظريات والآراء على البيئة التي يعيشون فيها، والإنسان معني قبل كل شيء بحياته الراهنة، يذود عنها الأضرار ويجلب لها المنافع؛ أما الذي لا ينفع الناس، ولا يكون له أثر في حياتهم، فوجوده وعدمه سيان في رأيهم[1].

(1) انظر: مذهب الذرائع (البراغماتزم) النظرية الأمريكية في المنفعة، يعقوب فام، ص 192.

وهكذا تأثرت الفلسفة الأمريكية بملامح الحياة الأمريكية هذه، ودخلت في تكوينها.

ومع أن الفلسفة الأمريكية اتخذت مسارها التاريخي من خلال متابعة الفلاسفة الأمريكيين للتراث الفلسفي العالمي؛ إلا أن تطورها تميز بميزة أساسية هي: أنه شمل كل جوانب الحياة (السياسة والاقتصاد والثقافة والدين والأخلاق...)[1].

وقد تأثرت أيضاً تأثراً بالغاً بتطور العلوم عامة، وعلم الأحياء والنفس خاصة، لا سيما أبحاث عالم الأحياء الإنكليزي تشارلز داروين[2] ونظريته في النشوء والارتقاء، وهي النظرية المعروفة بـ «نظرية التطور»، وتقوم على القول بأن أشكال الحياة المختلفة تعود إلى أصل واحد مشترك، وبدأت من خلايا بسيطة تكونت عن طريق المصادفة عبر عمليات كيميائية مركبة، ثم تطورت إلى كائنات كبيرة معقدة.

واستنتجت النظرية ما يعرف بقانون الصراع بين الكائنات، أو التنازع من أجل البقاء، الذي نتج عنه تعبير «البقاء للأصلح» أي أن الأفراد التي تتمتع بصفات تميزها عن غيرها، ستكون لها الفرصة الأفضل للبقاء، بعد صراعها مع بقية الكائنات الأضعف منها، حيث يبقى القوي وهو الصالح ويهلك الضعيف[3].

---

(1) انظر: تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال 200 عام، بيتر كاز، ص 373.

(2) تشارلز روبرت داروين (1809 ـ 1882م): باحث وعالم بريطاني عكف على دراسة علوم الطبيعة، واقترن اسمه بنظرية «النشوء والارتقاء» التي بينها في كتابه الأشهر: «أصل الأنواع» عام 1859. (انظر: الموسوعة العربية العالمية، مجموعة مؤلفين، 10/ 219).

(3) انظر: المرجع السابق (25/ 250).

كما أن البراغماتية تستمد الكثير من مبادئها من مقولة ماكيافيللي[1] الشهيرة: «الغاية تبرر الوسيلة».

والحديث عن البراغماتية لابد أن يسبقه تعريف برجالها الذين صاغوا نظريتها، وجعلوا منها المنهج الذي تتولاه أكبر قوة في العالم. وهذا ما سنحاول عرضه تالياً.

فلاسفة البراغماتية:

أولاً: تشارلز بيرس[2]:

فيلسوف أمريكي ولد في ولاية ماساشوسيتس في الولايات المتحدة، وشجعه والده الذي كان عالم رياضيات على دراسة العلوم والفلسفة، وقد تخرج من جامعة هارفارد عام 1859 وله إسهامات فكرية تأثرت بنظرية النشوء والتطور، ودور المصادفة في نشأة الكون، والعقل البشري وحقيقة الوجود الإلهي.

ويعد من الرواد الذين طوروا المنطق الرياضي، كما ساعد في تطوير دراسات الرموز وهي التي تعنى بالدلالات الرمزية للعلامات، إضافة إلى الكلمات، وقام بعرض أفكاره الأساسية لمذهبه الذرائعي (البراغماتي) في مقال بعنوان: «كيف نجعل أفكارنا واضحة»، والذي شكل نقطة البداية التي تلقفها من بعده من الفلاسفة، وصاغوا منها فلسفة البراغماتية المختلفة عما سبق.

---

(1) نيقولا ماكيافيللي (1469 ـ 1527م): رجل دولة وكاتب إيطالي، وأحد المفكرين السياسيين في عصر النهضة، فسر السياسة على نحو مختلف عما سبق، ودعا إلى استخدام كل الوسائل الضرورية في الحكم للحفاظ على الدولة بما فيها الوسائل القذرة، أوضح أفكاره في كتابه الشهير: «الأمير»، ومنه اشتق مصطلح «الماكيافيللية» الذي يعني المكر والتجرد من المبادئ الأخلاقية. (انظر: الموسوعة العربية العالمية، مجموعة مؤلفين، 24/ 47).

(2) انظر: المرجع السابق (5/ 390).

ومع ذلك لم يلق بيرس الاهتمام أثناء حياته لأنه لم يعن بتدوين فلسفته، وقام لفيف من الفلاسفة بعد وفاته عام 1914 بسنوات، بإصدار أعماله في ثمانية مجلدات تحت عنوان: «مجموعة أوراق تشارلز ساندرز بيرس».

ثانياً: وليم جيمس[1]:

ولد وليم جيمس في نيويورك عام 1841، وتلقى العلم والفلسفة في المدارس الأمريكية، ثم سافر إلى فرنسا لمتابعة دراسته، وهنالك اطلع على بعض المصنفات في علم النفس، فاتخذ لنفسه هذا الاتجاه، ثم عاد بعد أن أكمل دراسته إلى وطنه أمريكا، ولم يلبث أن صعد إلى ذروة الشهرة، فذاع اسمه ذيوعاً لم يعهد لأمريكي من قبله. وقد نال إجازة الدكتوراه من جامعة هارفارد عام 1870، وعمل بالتدريس في تلك الجامعة من عام 1872 حتى وافته المنية عام 1910. فحاضر أول ما حضر في الجامعة في التشريح وعلم وظائف الأعضاء، ثم في علم النفس، وأخيراً حاضر في الفلسفة.

ومن أشهر آثاره: «مبادئ علم النفس» عام 1890، و«إرادة الاعتقاد» عام 1897، و«الفلسفة العملية» عام 1907، و«معنى الحقيقة» 1909، و«مقالات في التجريبية المتطرفة» 1912.

ثالثاً: جون ديوي[2]:

ولد جون ديوي عام 1859 في برلينجتون فيرمونت، وتلقى دراسته هناك. ودرس الفلسفة في جامعة مينيسوتا بين عامي 1888 و1889، وانتقل بعدها إلى أكثر من جامعة، ثم ترأس قسم الفلسفة في جامعة كولومبيا. ويمتاز

---

(1) انظر: الموسوعة العربية، مجموعة مؤلفين (7/ 856).

(2) انظر: قصة الفلسفة، ول ديورانت، ص 625.

ديوي بأنه جال في أنحاء أمريكا كلها، ودرس إمكانياتها وقواها وحدودها، واطلع على ثقافتها المتنوعة. لذلك يعد ديوي واضع فلسفة القارة الأمريكية كلها لا فلسفة ولاية بعينها.

استلفت ديوي أنظار العالم لأول مرة أثناء تدريسه في جامعة شيكاغو، حيث كشف عن أفكاره في السنوات التي قضاها هناك. ويعد كتابه «الديمقراطية والتعليم» من أعظم كتبه حيث جمع فيه خطوط فلسفته، وركزها حول مهمة النهوض بالتعليم لتخريج جيل أفضل، وتأثرت بنفوذه معظم المدارس والجامعات الأمريكية. كما أبدى نشاطاً فائقاً وجهوداً كبيرة في تجديد المدارس في أنحاء مختلفة من العالم، وأمضى سنتين في الصين يحاضر فيها حول إصلاح التعليم، وقدم تقريراً إلى الحكومة التركية حول تجديد تنظيم المدارس الوطنية في تركيا.

وقد توفي ديوي عام 1952، بعد أن رسخ دعائم البراغماتية في أمريكا، وانتقل تأثيرها إلى مختلف بلدان العالم.

قصة نشوء البراغماتية:

طور البراغماتية ثلاثة فلاسفة أمريكيون كما بيّنا، وسأعرض للمراحل التي مرت بها البراغماتية ـ على أيديهم ـ حتى وصلت إلى فلسفة متكاملة، تم تبنيها في جميع جوانب الحياة الأمريكية.

أولاً: الخطوة الأولى مع بيرس:

يعد تشارلز بيرس أول من صاغ هذا الاصطلاح في مقالة نشرت عام 1878 في مجلة بوبيولار ساينس مونثلي (Popular Science Monthly) وكان موضوع المقال «كيف نوضح تفكيرنا»، وفيه وضع بيرس أساس فلسفة

البراغماتية، وبهذا وجه التفكير الفلسفي الحديث إلى جهة غير التي كان يسير فيها، وفتح له طريقاً مغلقة لم يكن يدري لها وجوداً قبل الآن، وإذا بهذا الطريق يحدث انقلاباً على كل ما سبق من نظريات فلسفية.

واعتمد بيرس في مقاله على ما ذكره هربرت سبنسر[1] من أن معظم معتقدات الإنسان التي يؤمن بها ليس لها صور حسية يستطيع أن يردها إليها، فالحرية أو الاختيار مثلاً لا يمكن للذهن أن يجد لها صوراً أو شكلاً ذهنياً، نستطيع أن نوضحها به. وبعبارة أخرى لا معنى لهذا الاصطلاح في حياتنا التي نحياها، وعلى هذا نستطيع أن نوفر على أنفسنا عناء البحث في وجود هذه الأشياء.

وإذا لم يكن لهذه المصطلحات صور وأشكال ذهنية يستطيع العقل أن يتعامل بها، فإننا نستطيع أن نزعم آمنين الخطأ ـ كما يرى سبنسر ـ أن هذه المصطلحات ليس لها وجود ذاتي مستقل في الكون، فهي حديث خرافة يمكن إلقاؤه في سلة المهملات؛ أما المصطلحات التي لها معنى أو تصل بنا إلى أشياء وحقائق نشاهدها في حياتنا اليومية، فلها مدلولات حقيقية أو لها معنى حقيقي، حتى وإن كنا لا نستطيع أن نجد لها صوراً وأشكالاً ذهنية عندنا.

وضرب مثالاً لذلك بالكهرباء: فهي لا تمتلك صورة ذهنية أو شكلاً يمكن لعقولنا أن تتخيله، ومع ذلك فمدلولها له وجود ذاتي مستقل وواضح في نظام الكون، فالكهرباء موجودة حقيقة حتى وإن كان الذهن لا يستطيع أن

---

(1) هربرت سبنسر (1820 ـ 1903): فيلسوف بريطاني حاول تكوين فلسفة شاملة قائمة على الاكتشافات العلمية في عصره، وتأثر بعالم الطبيعة الإنكليزي داروين وطبق نظريته في النشوء والتطور على علم الأحياء وعلم النفس والاجتماع وعلوم أخرى. من مؤلفاته: «المبادئ الأولية» ـ «مبادئ علم الأخلاق». (انظر: الموسوعة العربية العالمية، مجموعة مؤلفين، 12/ 138).

يتخيلها، والدليل آثارها وعملها في الحياة اليومية. وما هي إلا ما تستطيع أن تؤديه من الأعمال، وما تنتجه من آثار[1].

انطلق بيرس من هذه المقولة ليعمم هذا المبدأ، فجعله يتسع ليشمل جميع المصطلحات التي ليس لها صور حسية في أذهاننا، وبهذا وضع الأساس لفلسفة البراغماتية.

يرى بيرس أن معنى كل اصطلاح أو فكرة ليس لها صورة حسية، إنما هو في أثر هذه الفكرة أو الاصطلاح في المحسوسات أي في الاختبار والمشاهدة. فنحن نعيش في دنيا مادية ونفسية، وكل شيء يؤدي إلى تغيرات في هذه الدنيا، وينتج فيها آثاراً واضحة نلمسها ونحس بها ونشاهدها فيها، فلهذا الشيء وجود حقيقي.

ولا يمكن التدليل على الموجودات بالمنطق أو بالقضايا العقلية؛ وإنما نتوصل إلى إثبات وجودها بالآثار الحسية التي تنتجها هذه الموجودات في الدنيا التي نعيش فيها. والواقع أن كثيراً من الألفاظ والكلمات التي لها حظ من الصور المحسوسة إن هي إلا دلائل للعمل، أو اتجاهات إلى النشاط، وقد ننسى صورها أو أشكالها ولا يبقى منها شيء؛ إلا قدرتها على التوجيه العملي في الحياة.

ثانياً: الخطوة الثانية مع جيمس:

هذه هي الخطوة الأولى في البراغماتية كما وضع أساسها بيرس، وقد جعلها نظاماً فلسفياً لتفسير معنى الفكرة أو العقيدة، فالفكرة إنما هي مشروع للعمل وليست حقيقة في ذاتها كما تزعم النظم الفلسفية السابقة.

---

(1) انظر: مذهب الذرائع (البراغماتزم) النظرية الأمريكية في المنفعة، يعقوب فام، ص 93 ـ 94.

ثم جاء وليم جيمس الذي يعد فيلسوف البراغماتية، وحامل لوائها في العصر الحديث إلى مطلع القرن العشرين.

فقد زاد على ما جاء به بيرس بأن كل عقيدة تؤدي إلى نتيجة مرضية أو حسنة تعتبر عقيدة حقيقية، فليست الفكرة مشروعاً للعمل فقط؛ وإنما العمل أو النتائج هي الدليل على صحة الفكرة.

فقيمة الفكرة ليست في الصور والأشكال التي تثيرها في الذهن، وليست في انطباقها على حقائق الموجودات؛ وإنما في الأعمال التي تؤدي إليها هذه الفكرة، وفي التغيرات التي تنتجها في الدنيا المحيطة بها، ولا يهم في هذه الحالة حقائق الأشياء في ذاتها، لأننا نستطيع أن نفرض هذه الحقائق كيفما اتفق، وجميع الأحاسيس معالم تقود العقل إلى التصرف والسلوك.

ويجوز أن تكون الصورة الذهنية التي نمتلكها للأشياء لا تتفق مع حقيقة الأشياء ذاتها؛ لكن هذا لا يقدم ولا يؤخر لدى البراغماتية.

ومثال ذلك: الجرس وصوته الذي يعلن مواعيد السفر في محطة قطارات، لا يهمنا البحث في وجوده المستقل وماهية هذا الوجود؛ ولكن المهم عند الفلسفة البراغماتية هو الأعمال التي تؤديها هذه الأشياء، وفي النتائج التي تترتب عليها، وهي تحرك القطارات وسفر الناس[1].

ولقد اعترف جيمس أن رسالته التي قصد إلى أدائها هي أن يتخذ الإنسان من أفكاره وآرائه ذرائع يستعين بها على حفظ بقائه أولاً، ثم على السير بالحياة نحو السمو والكمال ثانياً.

---

(1) انظر: مذهب الذرائع (البراغماتزم) النظرية الأمريكية في المنفعة، يعقوب فام، ص 98.

ويرى أن من الغفلة والشطط أن يؤتى الإنسان هذه القوة العقلية فيبددها في البحث عما وراء الطبيعة من قوى لا تقدم جديداً، فالعقل لم يخلق إلا ليكون أداة للحياة ووسيلة لحفظها وكمالها، ومن الأجدى أن ينصرف إلى أداء واجبه، والغوص في الحياة العملية الواقعية، وحين تتضارب الأفكار وتتعارض يكون أحقها وأصدقها هو أنفعها وأجداها[1].

ولابد من عرض فكرة جيمس البراغماتية المتعلقة بوجود الله، فهو يتساءل عن أهمية هذا الإيمان، وما هي النتائج التي يمكن أن يحققها لنا؟

ومعظم الناس يؤمنون بالله، وهذه الفكرة إما أن تكون صواباً أو خطأً في حكم المنطق، فالنظريات الفلسفية السابقة تقول أن الله موجود إذا تبين منطقياً وجوده؛ أما البراغماتية فتعالج المسألة من ناحية أخرى، ففي رأيها أن صواب هذه الفكرة لا يتوقف على الضرورات المنطقية؛ وإنما على صلاحية هذه الفكرة في حياتنا الراهنة، وفي تصرفاتنا اليومية، فإذا أدت إلى نتائج مرضية فهي صحيحة وصائبة، وبذلك يكون الله موجوداً[2].

وهكذا ينظر جيمس إلى الإيمان بالله نظرة لا يمكن وصفها بأقل من كونها انتهازية، فإذا ساعدنا هذا الإيمان على السير في الحياة عندئذ يكون من الأفضل أن نؤمن به، ما لم يتضارب مع فوائد أكثر نفعاً للإنسان!

وبرأيه فإن الأكثرية العظمى من الناس تؤمن بالله لا لأنها تمتلك دليلاً قاطعاً على ذلك؛ بل لأنها ترى في هذه العقيدة دافعاً يبث في حياة الناس روحاً قوية، ويعطي الأمل الذي تزدهر به الحياة وتثمر، والذي لولاه لضاقوا ذرعاً بأعبائها.

---

(1) انظر: قصة الفلسفة الحديثة، أحمد أمين وزكي نجيب محمود، ص 407 ـ 408.

(2) انظر: قصة الفلسفة، ول ديورانت، ص 621.

فسلوكنا العملي هو الذي يوجه أفكارنا، وليست أفكارنا هي التي توجه أعمالنا[1].

ثالثاً: الخطوة الثالثة مع ديوي:

جاء دور جون الذي خطا بهذه الفلسفة الخطوة الحاسمة التي قلبت النظم الفلسفية رأساً على عقب، وحولت مجراها إلى ناحية تختلف كل الاختلاف عن النظم الفلسفية التقليدية.

وديوي المتأثر بنظرية النشوء والارتقاء لتشارلز دارون، سمّى نظريته في البراغماتية بـ «نظرية الأداة»، وهدف إلى نقد النظرية العقلية القائمة على اعتبار العقل أداة للمعرفة، وأنه وحده الذي يستطيع الوصول إلى الحقائق في ذاتها، والنفاذ من الظواهر الطبيعية إلى الحقائق التي تكمن وراءها، على عكس الحواس التي لا يمكنها الوصول إلا إلى الظاهر. والمعرفة التي تصلنا عن طريق العقل معرفة صائبة وحقيقية.

وعندما ظهرت البراغماتية زعمت أن الدليل على حقيقة أي شيء إنما هو أثر هذا الشيء وعمله ووظيفته؛ لكنها تركت العقل كما هو أداة للمعرفة، فإنما وجد لكي يعرف. لكن ديوي تخطى هذه المرحلة أيضاً بقفزة واحدة، فزعم أن العقل أداة تطورت في مسيرة النشوء لكي تتيح للإنسان إعادة تشكيل بيئته، فهو ليس أداة للمعرفة؛ وإنما هو أداة لتطور الحياة وتنميتها، وليس من وظيفة العقل أن يعرف؛ بل عمله هو خدمة الحياة وتيسير السبل لها لكي تنمو وتطرد.

ومَثَل العقل في هذه الحالة كمثل أي عضو آخر في جسم الإنسان، كالعين التي لم تخلق في الإنسان لتنقل إليه الألوان؛ وإنما خلقت فيه لتدله على مواضع

(1) انظر: قصة الفلسفة الحديثة، أحمد أمين وزكي نجيب محمود، ص 408.

الخطر، فتجنبه المهالك، وإذا كانت العين أداة للحياة فالعقل كذلك أيضاً، ومن هنا سميت هذه النظرية بنظرية «الأداة» أو «الآلية»، أي أن العقل آلة أو أداة يستخدمها الإنسان في المحافظة على الحياة أولاً، وفي تنميتها واطرادها ثانياً.

ثم تلت هذه الخطوة خطوة أخرى هي «البشرية»، وهي إحدى أنواع البراغماتية المنبثقة منها، والتي تزعم أن أي حق من وجهة نظر الإنسان يجب أن يخدم مصلحة هذا الإنسان دون غيره. فمقياس الحقائق ليس في التطابق بين الاصطلاح أو الحكم وبين الأشياء الخارجية؛ وإنما مقياس الحق هو في خدمة الجنس البشري. فكل ما من شأنه أن يخدم الإنسانية ويأخذ بيدها إلى الحياة المثلى فهو الحق دون أي اعتبار آخر، ودون التفات إلى ما يزعمه العقليون من أن الحكم على وجود الشيء صواب متى كانت الضرورة المنطقية تتطلب وجوده، وإذا أخذنا فكرة وجود الجنة كمثال، فإن هذا الحكم حق إذا كان العقل يرى بالمنطق أن وجودها ضروري، في حين لا تقبل البراغماتية ومشتقاتها بهذا الحكم، لأنها تزعم أنه إذا كان من فكرة الجنة نفع للبشرية فهي موجودة حقاً[1].

هذه هي المراحل التي مرت بها البراغماتية، حتى نضجت وأصبحت فلسفة متكاملة.

فلسفة البراغماتية:

تختلف البراغماتية عن النظريات الفلسفية السابقة في نظرتها للحواس والعقل، ودورهما الأساسي في حياة الإنسان وفي تعريفها للحقيقة، والإيمان. وسنعرض لهذه النظرة المباينة تماماً لما سبق، والتي تساهم في توضيح مبادئ البراغماتية بشكل أفضل.

---

(1) انظر: مذهب الذرائع (البراغماتزم) النظرية الأمريكية في المنفعة، يعقوب فام، ص 100 ـ 101 ـ 102.

أولاً: دور الحواس:

ترى البراغماتية أن الحواس أدوات للحياة والعيش، فهي تساهم في تنمية الحياة وتوفير سبل العيش له، وليست أبداً أبواباً للمعرفة، وتعتبر النظر إليها على أنها أدوات للمعرفة خطأً وقعت فيه الفلسفات السابقة.

والبرهان على ذلك ـ بزعمها ـ هو أن الإنسان، ومنذ فجر التاريخ ينظر إلى الحياة بذاتها على أنها الغاية من النضال أو الغاية من العيش والنشاط، وكانت الحواس هي الوسائل المباشرة لجلب المنفعة ودفع الضر، وبعبارة أخرى لم يمتلك هذه الحواس ليتناول بها حوادث الوجود تناولاً من جوهره المعرفة والفهم والإدراك، أو من جوهره الوصول إلى ما تخفيه وراءها من حقائق ثابتة؛ وإنما كانت بالنسبة له أدوات تحذير وتنبيه.

لم تكن وظيفة عينيه عندما تنقل إليه الإحساس بطلوع الشمس أن تنبهه إلى الحقيقة الموضوعية لهذا الطلوع؛ بل تنقل له هذه الظاهرة على أنها إيذان بالعمل والسعي والنشاط. فكأن وظيفة الحواس تشكل خطوة أولية ومقدمة للعمل الذي يقصد منه التغيير.

ولم تستطع الفلسفة التقليدية أن تصل إلى هذه الحقائق، ويعود الفضل في اكتشافها إلى علم الإنسان وعلم النفس والأحياء، فهذه العلوم هي التي استطاعت توجيه الفلسفة إلى الوجهة العلمية والعملية، فأثمرت الفلسفة البراغماتية.

كما تنكر البراغماتية على الفلسفة التقليدية إصرارها على رد الأشياء إلى شيء واحد، تدعوه الحقيقة وتدعو ما عداه خداعاً ومظاهر لا أصل لها، وتؤكد البراغماتية إمكانية تعدد الأشياء والحوادث والحقائق، فموضوعات الحس متنوعة ولا تنتهي، وهي متقلبة متغيرة تظهر وتختفي، وكلها حق[1].

---

(1) انظر: في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، محمد فتحي الشنيطي، ص 94 ـ 95.

ثانياً: دور العقل والفكر:

تزعم البراغماتية المتأثرة بنظرية النشوء والارتقاء أن العقل البشري تطور مع تطور الحياة الإنسانية، وهذا التدرج الذي رافق نشأته وعمله بدأ بتلقي مؤثرات البيئة عن طريق الحس، حتى وصل إلى إدراك العلاقات بين الأشياء، والتصرف وفق ما تمليه الحالة الراهنة، وهو لا يزال يتطور إلى ما لا نهاية.

والإنسان بدأ بالتفكير ابتغاءً أن يبقى على قيد الحياة، ويحسن أحواله المعيشية. وفي ذلك يقول ديوي: «إن التفكير يتبع الكفاح، والفعل يتبع التفكير»[1].

ويعتقد البراغماتيون أن الإنسان لا يفكر إلا إذا كانت لديه مشكلة يحاول التغلب عليها، ولو لم تكن لديه مشاكل لكانت حياته عارية عن التفكير.

فنقطة البداية للتفكير هي حدوث شك، أو مشكلة ما يراد حلها، فالتفكير ليس عملية احتراق تلقائي، إنه لا يوجد إلا حيث تكون هناك حاجة أو مناسبة تدعو إليه. وتشكل الحاجة إلى حل المشكلة العامل المرشد في عملية التفكير، ومع حلها يتوقف، ثم يستأنف مع مشكلة أو موقف جديد. كما تعد الفكرة مبدأ العمل أو الخطوة التمهيدية للعمل.

والنتيجة التي تخلص إليها البراغماتية هي أن التعامل بالأفكار هدفه تحسين تصرفات الإنسان، وجعلها أنجع للحياة، وحين يتبين لنا عدم نفعيتها نمتنع عن التفكير بها؛ أما إذا كان من المحتمل نجاحها فلا بأس حينها أن يشرع العقل في تحقيق الرأي، وإخراج الفكرة إلى حيز الوجود، وبقدر ما تكشف الأفكار أنها فعالة وأدوات ناجحة في حل المشاكل وعلاجها، فإنها تكون أوفر حظاً من الحقيقة والصحة، وإذا تلعثمت الفكرة في معالجة موقف

---

(1) انظر: موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، (1/ 501).

ما، توصف على أنها فرض أو اقتراح؛ لكنها تتحول إلى حقيقة واقعية حين تتوقف عن التردد والترجح.

فالعقل ليس أداة للمعرفة؛ بل أداة للتعامل والنشاط، أي أن معناه ينحصر فيما يؤديه من أعمال، وليس فيما ينقله إلينا من معلومات ومعارف.

وليس ثمة قيمة لفكرة أو نظرية إلا إذا تيسر لنا تطبيقها تطبيقاً مباشراً على الوقائع التي نلاحظها. فإذا طبقنا هذا المنهج العلمي على التجربة الإنسانية أمكننا أن نصل إلى القاعدة البراغماتية، أي البحث عن المعنى الواقعي للفكر، مما يجعلنا نحتفي به على قدر ما يأتي به من نتائج عملية خالصة[1].

ومن هنا يتضح منهج البراغماتية القائم على مزج الفكر بالحياة.

ثالثاً: مفهوم الحقيقة لدى البراغماتية:

والحديث عن العقل ودوره لابد أن يُستتبع بتعريف لمفهوم الحقيقة وفق النظرة البراغماتية لارتباطهما الوثيق، وبما أن العقل يعتبر ـ لديهم ـ أداة من أدوات البقاء، فإن الفكرة التي تنشأ فيه لا تكون حقيقة إلا إذا امتلكت القدرة على الإجابة على الظروف المحيطة على النحو الذي يمكّن الإنسان من البقاء.

والحقيقة ليست حقيقة إلا إذا عملت على نجاح الحياة، وتتحقق بملاءمة حياة الإنسان الداخلية مع الظروف الخارجية، ولا يعنيهم أن تكون الصورة الذهنية التي رسمها العقل عن الأشياء الخارجية مطابقة لأصلها أو مشوهة ومحرفة، فالحقيقة العليا في الوجود هي الاحتفاظ بالبقاء أولاً، ثم الارتفاع بالحياة نحو الكمال.

---

(1) انظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا، (1/ 203 ـ 204).

فالإنسان يعيش في عالم وقائع، وهذه الوقائع قد تكون نافعة وقد تكون ضارة، وتعتبر الأفكار التي تتنبأ سلفاً بما يتوقعه من واقع معين أفكار حقيقية، كما أن امتلاك الحقيقة ليس غاية في ذاته؛ وإنما هو وسيلة لإشباع اهتماماته المتجددة.

وهكذا تتضح النظرة البراغماتية للحقيقة القائمة على الفائدة والمنفعة، فكل ما يحقق المنفعة والفائدة للإنسان فهو «الحق»، وكل ما عداه «باطل» بغض النظر عن كونه حقاً من الناحية العقلية.

وبعد أن كانت الحقيقة تتميز بخاصيتها غير الزمنية، والتي تعلو بمضمونها على كل تغيير، أصبحت عرضة للخطأ، فالظواهر التي تثبت اليوم ترتهن بمدى وضوحها وفعاليتها لذلك، ولا يمكن استبعاد احتمال تعديلها، فقد تكون حقاً اليوم ثم يظهر خطؤها في المستقبل، فنتحول عنها إلى حقيقة أخرى تظهر لاحقاً[1].

رابعاً: الدين والإيمان من منظور براغماتي:

طبق فلاسفة البراغماتية ـ لا سيما جيمس ـ مذهبهم الفلسفي على الإيمان بالله، وهي أهم مسألة شغلت الفكر الإنساني منذ وجوده، فخرجوا بنتيجة فريدة في هذا المجال قائم أيضاً على النظرة النفعية والانتهازية ـ إن صح التعبير ـ والتي صدمت رجال الدين المسيحي في الغرب، كما أنها أيضاً غير مقبولة إسلامياً.

ويمكن تلخيصها بما يلي: يرى جيمس أن الإنسان كانت له وستكون دائماً «تجربة دينية»، ذلك أن الإنسان شعر من حوله بحضور «تجربة أخرى»

(1) انظر: تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال 200 عام، بيتر كاز، ص 375.

قريبة من تجربته، ومتعاطفة مع أمانيه وتناضل معه ضد الشر، وتعمل في صالح الخير، وتشيع في نفسه السلوى؛ لهذا يفوض أمره لها، ويطلب منها العون. وهي تجربة مختلفة عن التجارب الحسية؛ لكنه يوجب تفسيرها وفق المنهج المتبع في التجربة الحسية، أي فكرة المنفعة العملية، أو الفائدة المترتبة عليها، فإن كانت تقدم لأنفسنا الطمأنينة والسعادة والسلام فينبغي أن نعدها صحيحة؛ تبعاً لمعيار الحقيقة البراغماتي.

ولا يهم البراغماتية الجدال المتركز على تفسير حقيقة الكون والحياة وخالقهما، وهل وجد العالم مصادفة، أم بتدبير حكيم عليم، فما يهمها هو أن العالم وجد والحقيقة التي لا مرية فيها هي أنه موجود، سواء أكان ثمرة التقاء ذرات أو من صنع خالق عظيم جبار، فهذا لن يبدل من الواقع شيئاً.

ثم تفند البراغماتية النظرتين، فترى أن إنكار وجود خالق للكون يجعل العالم مرهوناً بنشاط قوى عمياء، ومن ثم لا يؤدي ذلك إلى الاستقرار على الصعيد النفسي؛ أما الاحتمال الثاني فإنه يضع زمام الأمور بين يدي قوة عاقلة حكيمة ذات أهداف أخلاقية سامية، ويمكنها أن تزودنا باليقين والطمأنينة والأمل[1].

ويدافع جيمس في كتابه «إرادة الاعتقاد» عن حق الإنسان في اعتقاد ما يراه مفيداً له في حياته، ويقرر أن في وسع الناس أن يؤمنوا بأمور لأسباب عاطفية رغم انتفاء الدليل العقلي عليها.

ولم يقتصر جيمس على مسألة وجود الله؛ بل شمل منهجه هذا كل الأمور التي تفتقر إلى دليل واضح برأيه. ومنها مسألة خلود النفس، فرأى أن

(1) انظر: في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، محمد فتحي الشنقيطي، ص 95 ـ 96.

ثمة دلائل تشير إلى خلود النفس؛ لكن حتى وإن انعدم الدليل، فإن لنا ما يبرر الاعتقاد في خلود النفس لما لذلك من فوائد عملية[1].

ويلاحظ التخبط الذي يعانيه فلاسفة البراغماتية في هذه المسألة تحديداً، والتي تعود على مصادمة العقيدة المسيحية المحرفة التي يتبناها الغرب للعقل السوي، مما دفع البراغمانيين إلى الهروب من تناقضاتها عن طريق هذه النظرية الملتوية؛ أما العقيدة السليمة فستجد القبول من العقل والقلب معاً، كما أنها ستحقق الفائدة والمنفعة التي يرجوها الإنسان في الدنيا والآخرة.

أثر البراغماتية في الحياة الأمريكية:

تدخلت البراغماتية في جميع مناحي الحياة في أمريكا بلدها الأم، ووجهت قواها إلى تصوير الأهداف الإنسانية، وتنسيقها والنهوض بالحياة وفق منهجها ونظرتها الخاصة. ومن أهم المجالات التي تركت بصمتها عليها، وصبغتها بصبغتها المجالات التالية:

أولاً: التربية والتعليم البراغماتيان:

وقد برع في تطوير هذا المجال؛ بل إحداث انقلاب فيه جون ديوي، الذي أحرز فيه قصب السبق، وأدى ذلك إلى ذيوع صيته كعالم تربية أكثر من شهرته كفيلسوف. وعرض مؤلفاته في التربية، ومنها: «عقيدتي التربوية» و«المدرسة والمجتمع»؛ لكن أهمها كتاب: «الديمقراطية والتربية» عام 1916.

وإذا كان سبنسر قد طالب بزيادة تدريس العلوم، وإقلال دراسة الآداب في برامج التعليم، فإن ديوي تبنى تلك المقولة وأضاف عليها وجوب تدريس

---

(1) انظر: الموسوعة الفلسفية، عبد الرحمن بدوي، (1/ 450).

العلوم بطريقة عملية تأتي عن طريق الممارسة الحقيقية النافعة للحرف والمهن، لا طريق تعليم الكتب[1].

وهاجم ديوي على السواء: التصور السائد في المدارس الأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين القائل بأن الطفل كائن سلبي، ومهمة التربية والتعليم هي فرض المعارف على ذهنه، كما هاجم النظرة الجديدة في أوروبا، والمضادة لهذه القائمة على التمجيد العاطفي للطفل. فكانت تدعو إلى ترك الطفل يلتقط ويختار بنفسه ما يهوى من معلومات ودراسات.

ورأى ديوي أن كلتا النظريتين قائمة على علم نفس فاسد وخاطئ، فالنظرية الأولى أفرطت في الاستهانة بذكاء الطفل الفطري، والثانية غفلت عن أن الطفل لا يزال في مرحلة غير ناضجة، ومن ثم رأى ديوي أن التربية ينبغي أن تتولى الانتقال بالطفل والبالغ من تجربة غير ناضجة إلى تجربة أكثر نضجاً، قائمة على ذكاء الطفل أو البالغ ومهاراته، ووضع شعاراً لمذهبه التربوي يقول فيه: «تعلم بأن تعمل»[2].

ولم يقصد ديوي من ذلك صرف التربية والتعليم عن التزويد بالعلوم والمعارف؛ بل لفت الانتباه إلى أن الطفل مخلوق مولع بالنشاط، وحب الاستطلاع والاكتشاف، وليس قابلاً للتشكل على النحو الذي يريده المربي فقط، وليست استعداداته ومواهبه ثابتة ومحددة. وتتمثل وظيفة التربية في تشجيع العادات والاستعدادات التي تكوِّن ذكاءه.

---

(1) انظر: قصة الفلسفة، ول ديورانت، ص 626.

(2) انظر: موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، (1/ 502).

وبما أن المجتمعات المعاصرة تعتبر مجتمعات صناعية، وهو بذلك يقصد المجتمع الأوروبي عامة والأمريكي خاصة، فينبغي أن تكون المدارس فيها أشبه بالمصنع الصغير، على أن تقوم بالتعليم بطريقة عملية، يتدرب فيها التلاميذ من خلال إقامة التجارب العلمية والاستفادة من أخطاء هذه التجارب، وتدريس الفنون والنظم اللازمة في النظام الاقتصادي والاجتماعي، والنظرة إلى التعليم لا على أساس كونه مجرد إعداد للنضوج؛ بل نمو ونهوض مستمر للحق، وتنوير مستمر للحياة[1].

ثانياً: أثر البراغماتية في الاقتصاد:

رسخت النظرية البراغماتية القائمة على المنفعة والفائدة النظام الرأسمالي، الذي يعد من أكبر المستفيدين من توجهات البراغماتية ومعاييرها المصلحية.

والرأسمالية: نظام اقتصادي ـ اجتماعي ذو فلسفة اجتماعية سياسية، يقوم على أساس إشباع حاجات الإنسان الضرورية والكمالية، وتنمية الملكية الفردية والمحافظة عليها؛ متوسعاً في مفهوم الحرية، ويكون الربح وجلب المنفعة فيه محرك النشاط الاقتصادي[2].

وتعود نشأته إلى قرون خلت، كما أنه خضع لتطورات عدة خلال تاريخه حتى وصل إلى ما وصل إليه اليوم، وأصبح النظام الذي تتبناه أقوى الدول في العالم، وأكثرها نفوذاً وسيطرة كالولايات المتحدة، وبريطانيا وكندا وأستراليا واليابان.

---

(1) انظر: قصة الفلسفة، ول ديورانت، ص 626.

(2) انظر: الموسوعة العربية، مجموعة مؤلفين، (9/ 714).

ووجه التقارب بين البراغماتية والرأسمالية واضح، ويتمثل في حرص كليهما على تحقيق كل ما من شأنه جلب المنفعة الشخصية، باستخدام شتى الأساليب المشروعة وغير المشروعة، وفق المبدأ الماكيافيللي: «الغاية تبرر الوسيلة».

وهكذا حدث تزاوج مصلحي بين البراغماتية والرأسمالية، هدفه تحقيق الهيمنة الاقتصادية ونهب ثروات الشعوب بشتى السبل، لأن في ذلك كل المنفعة والفائدة لمنظريها.

إن هذه الفلسفة كانت ملهمة للنظام الرأسمالي القائم على مبدأ المنافسة الحرة. ثم ظهرت مساوئه عند التطبيق واستفحلت أخطاره بسبب ارتباطه الوثيق بالحروب.

ثالثاً: السياسة البراغماتية:

تعد فكر المحافظة على البقاء، وجعلها الغاية التي يسعى إليها الإنسان ويستخدم لأجلها جميع الوسائل المحرك الأساسي لكثير من الصراعات والحروب، التي نشأت كنتيجة حتمية لتبني النظرة البراغماتية.

وقد اتضح مما سبق العلاقة الوثيقة بين الرأسمالية والبراغماتية، ونشأ عن الرأسمالية احتلال الشعوب تحت مسمى «الاستعمار» لنهب ثرواتها، وتسخيرها لصالحها اقتصادياً ثم فكرياً وثقافياً.

لقد أثرت الفلسفة البراغماتية تأثيراً بالغاً على السلوك السياسي الأمريكي، وجعلته في الكثير من الأحيان يقوم على الانتهازية الصريحة وتغلب المواقف، والتحول من دعم الحلفاء إلى مهاجمتهم باعتبارهم خصوماً ألداء.

وترسم سياسة المعايير المزدوجة أو الكيل بمكيالين، التي تتبناها الدول الغربية عامة، والولايات المتحدة خاصة، الصورة الواضحة للسياسة البراغماتية.

ووفق معيار الحقيقة البراغماتية، فما يكون حقاً في مكان يصبح باطلاً في مكان آخر، وكمثال على ذلك: يمكننا ملاحظة البون الشاسع بين تعامل الولايات المتحدة والغرب عموماً مع استشهاد إخوتنا في الأرض المحتلة على يد الإرهاب الصهيوني، وبين مقتل بضع جنود إسرائيليين محتلين للأرض، ومعتدين على سكانها على يد المجاهدين. وإذا فرضنا جدلاً أن الموقف الحيادي التام يقول في مثل هذه الحالة أن كلتا العمليتين تعتبر جريمة قتل، أو عملاً إرهابياً؛ إلا أن أمريكا البراغماتية تذهب إلى أبعد من هذا، فتسمي الأول دفاعاً عن النفس من قبل إسرائيل، والثاني عملاً إرهابياً يستدعي تدخلاً حاسماً «للقضاء على الإرهاب».

ومثال آخر يتجلى في كيفية التعامل مع قضية أسلحة الدمار الشامل التي تمتلكها إسرائيل، وتهدد بها الأمن والاستقرار في المنطقة بكاملها، وسكوت أمريكا ودعمها اللامتناهي له؛ وفي المقابل نرى حملتها الشعواء على العراق لمجرد احتمال امتلاكه هذه الأسلحة، والتي تبين أنها لم تكن سوى ذريعة من ذرائع مذهبها لاحتلاله، كما نرى ذلك في تعاملها اليوم مع الملف النووي الإيراني.

وتناصر البراغماتية الديمقراطية[1]، لأنها ترى أن هدف النظام السياسي مساعدة الفرد على التطور والنهوض بنفسه تطوراً تاماً، وترى أنه لا يمكن الوصول إلى ذلك إلا إذا اشترك كل فرد ـ على قدر وسعه ـ في تقرير سياسة جماعته ومصيرها.

---

(1) ديمقراطية: تعبير مشتق من اليونانية بمعنى سلطة الشعب، ولها أشكال منها: اختيار الشعب للحكام، ومنهج المساواة في الفرص والمساواة أمام القانون في الحقوق والواجبات، والتصويت في الانتخابات العامة. (انظر: الموسوعة العربية، مجموعة مؤلفين، 9/ 556).

ونجد أن ديوي لا يثق بالدولة ويفضل نظاماً متعدداً، تقوم فيه جمعيات طوعية اختيارية بعمل المجتمع، كما أنه يعتبر تعدد المنظمات والأحزاب والشركات والنقابات وغيرها؛ توفيقاً بين الفردية والعمل العام المشترك[1].

وتخضع الديمقراطية نفسها للمعيار البراغماتي، فنراها تصبح حقاً لبعض الشعوب، ومحرمة على شعوب أخرى، ونجد أن الولايات المتحدة تغض الطرف عما يجري في بعض مناطق العالم من انتهاكات لحقوق الإنسان لأن الحقيقة نسبية، وخير مثال على ذلك: تغاضي أمريكا عما تفعله روسيا مع الشعب الشيشاني الصامد.

البراغماتية.... ما لها وما عليها:

توجه إلى البراغماتية انتقادات عديدة، وغالباً ما توصف بأنها فلسفة انتهازية، ليس لها مبدأ معين تلتزم به إلا المنفعة، فهي قبلتها التي توجه وجهها إليها. ومن هذه السلبيات التي تدعونا إلى معاداة البراغماتية:

1 ـ تؤدي البراغماتية إلى التنافر بين الناس، وإلى عدم انسجامهم في سلك المجتمع، لأن كل فرد سينتقي لنفسه الرأي الذي ينفعه بغض النظر عما يتخذ سواه من آراء، فهي فلسفة تعتمد على مزاج الإنسان وظروفه ومنفعته الشخصية[2].

2 ـ تقدس البراغماتية حرية الإنسان، وهذه ناحية إيجابية؛ إلا أن القوم لم يرعوها حق رعايتها، مما أدى إلى انتشار الإباحية والرذيلة، وبذلك تجاوزت الحرية الحدود والضوابط التي لابد أن تقف عندها حين تتعارض مع الضوابط والقيم الدينية والأخلاقية.

---

(1) انظر: قصة الفلسفة، ول ديورانت، ص 630.

(2) انظر: قصة الفلسفة الحديثة، أحمد أمين وزكي نجيب محمود، ص 413.

3 ـ حذر أصحاب المذاهب الفكرية من الخطر الكامن من الأخذ بالمنهج البراغماتي، أي الحكم على الأفكار بنتائجها العملية، ورفضوا الحكم على الأفكار السامية التي تتخطى كل تجربة بموازين مستمدة من التجربة.

4 ـ كما أن البراغماتية تفتقر إلى الموضوعية في عملية بحثها عن الحقيقة، لأنها تخضعها لعامل المنفعة الشخصية، وتجعل من المنفعة والفائدة الميزان الذي تزن فيه الحقائق، وهكذا ينطبق عليهم الوصف القرآني ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الجاثية 23.

فتطبيق النظرية البراغماتية بعيد عن الحقيقة في مجال العلم، وما ذهب إليه جيمس والبراغماتيون من أن قضايا العلم قضايا حقيقية لأنها مفيدة عملياً، يبدو نسفاً للحقائق العلمية من أساسها. إن قبول نظرية معينة واعتبارها صحيحة بدون برهان ولمجرد أنها نافعة، أو أنها ترضينا من ناحية ما، يعد مناقضاً للموقف العلمي تماماً.

5 ـ لا تستثني البراغماتية في سبيل تحصيل المنفعة أي وسيلة مهما كانت قذرة، فنراها تلجأ إلى الوسائل المشروعة وغير المشروعة في سبيل ذلك دون الشعور بأي حرج، وليس هذا بالسر الذي يخفى، فنحن نرى مصداق ذلك من خلال السياسة ومنهج الحياة، والحضارة الغربية عامة والأمريكية خاصة.

6 ـ يؤدي تبني المنهج البراغماتي إلى نشوء الحروب والصراعات، بدعم من النظام الرأسمالي، وما يجره ذلك من ويلات على العالم، لا يمكنه التخلص منها بسهولة.

7 ـ أكثر ما يثير الانتباه في البراغماتية ويدعو إلى ضرورة مراجعتها، هو نظريتها المتعلقة بالإيمان والدين. تلك النظرة التي أقل ما توصف بأنها تفتقر

إلى أبسط القواعد العقلية البديهية، فما الذي يجبرني على الالتزام بدين معين، وأداء ما يترتب على ذلك من واجبات، إذا كان عقلي يرفضه، أو على الأقل لا يملك دليلاً على صحته. ولا يمكن القبول بتفسيرهم النفعي لضرورة الإيمان؛ بل لعل هذا ما يؤكد تخبطهم وعدم اقتناعهم بديانة امتدت أيديهم إليها تحريفاً وتصحيفاً، حتى أصبحت لا تقنع عقلاً ولا تشبع عاطفة.

8 ـ النظرة إلى العقل على أنه أداة للبقاء وليس أداة للمعرفة، وفي هذا حط من قدر العقل، الذي أكرمنا الله به وميزنا به عن بقية المخلوقات، ومسخ لدوره. فالمخلوقات الأخرى التي لم تمتع بالعقل يمكنها الصراع من أجل البقاء بفضل غريزة البقاء التي متعها الله بها؛ والإنسان يمتلك هذه الغريزة أيضاً؛ إلا أنه يمتلك العقل وهو الذي يوصله إلى المعرفة والحق، لا سيما الحقيقة الأسمى وهي وجود الله جل جلاله، وهو لهذه الغاية السامية خلق.

ويتضح من نظرة البراغماتية للعقل أنها تفقد الثقة بقدراته، فجوهرها قائم على النظرة إلى أن الإنسان مكره على العيش في عالم لا عقلاني يتعذر فهمه، ومهما حاول إدراك الحقيقة الموضوعية، فإن محاولاته ستبوء بالفشل، لذا يجب النظر إلى مختلف النظريات العلمية، والأفكار الاجتماعية والقيم الأخلاقية نظرةً أداتيةً، أي بمقدار منفعتها في تحقيق أهدافه[1].

9 ـ اللاأخلاقية التي تتميز بها رغم التقيد ببعض الفضائل كالأمانة والانضباط والدقة ومراعاة المواعيد ولكنها ـ كفضائل ـ ليست مقصودة لذاتها؛ ولكنها تفيد البراغماتي في تعامله مع الغير، وتظهر «اللاأخلاقية» بوضوح في أساليب الدعاية والإعلام.

---

(1) انظر: موجز تاريخ الفلسفة، مجموعة مؤلفين سوفييت، ص 624.

10 ـ البراغماتي شخص يهتم بتحصيل منفعته الخاصة والحفاظ على بقائه، مما يدفعه إلى مسايرة الأحداث والظروف التي تعرض له، والانحناء أمام عواصفها في سبيل البقاء، وهذا يعني التفريط بكثير من الثوابت، التي لا تعترف البراغماتية أصلاً بها، فنراه يضحي بكرامته وإنسانيته، وبذلك يفقد القيمة من وجوده كإنسان كرّمه الله.

ومع ذلك فلا تخلو البراغماتية من بعض المظاهر الإيجابية التي تحسب لها، وقد أدت خدمات مختلفة منها:

1 ـ أنزلت البراغماتية الأبحاث الفلسفية إلى مستوى تفكير الرجل العادي، بعد أن كانت وقفاً على طائفة معينة.

2 ـ أدت إلى اتصال وثيق بين العمل والفكر، كما أنها بينت أثر هذا التفكير في النظم الاجتماعية للإنسان، وأكدت على ضرورة أن تؤدي الفلسفة الخدمات لحياة الإنسان الاجتماعية من سياسة واقتصاد وتربية وتعليم.

3 ـ قلبت البراغماتية نظم التعليم رأساً على عقب في جميع أنحاء العالم، ووضحت الغاية من التعليم ورسمت له ميادين العلم والنشاط، وأنشأت مدرسة حديثة قائمة على فلسفتها، فهي ترى أن كل نظام تعليمي نظري لا يؤثر في الحياة الراهنة، ويخدمها بكل الطرق المستطاعة، هو نظام عقيم ومجهود من غير طائل[1].

4 ـ كما أنها أدت إلى تطور علمي غير مسبوق؛ كنتيجة حتمية لعشقها للتجربة والتطبيق، وربط الفكر بالعمل.

---

(1) انظر: مذهب الذرائع (البراغماتزم) النظرية الأمريكية في المنفعة، يعقوب فام، ص 197.

البراغماتية والإسلام:

أشرقت شمس الإسلام على العالم لتخرجه من الظلمات إلى النور، وبعث محمد بن عبدالله ﷺ رحمة للعالمين، والإسلام الذي شرعه الله لخير البشرية يرحب بأي فكرة تساهم في سعادة هذا المخلوق المكرم في الدنيا والآخرة، فالحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق بها، على أن تلتزم بالضوابط التي وضعها الشرع، وتسبح في فلكه، لأنها ـ وضمن هذه الحدود وحدها ـ يمكن أن تحقق له هذا الخير المنشود.

وإذا نظرنا إلى البراغماتية بمنظور إسلامي، وزنّاها بميزانه، فسنرى فروقاً جوهرية تدفعنا إلى رفض نظرتها القائمة على النفعية، التي تغض الطرف عما يمكن أن يجلبه هذا الجري اللاهث وراء المنفعة من كوارث على البشرية.

ويمكن توضيح معالم هذه الفروق من خلال النقاط التالية:

1 ـ لم يترك الله عز وجل عقل الإنسان يتخبط في متاهات الفكر بحثاً عن أعظم حقيقة في الوجود؛ بل بينها له بالأدلة الدامغة عن طريق إرسال الرسل، وتأييدهم بالوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا الحق ليس بنسبي؛ بل ثابت لا يتغير إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

2 ـ الحق والخير هو ما حدده منزل القرآن الكريم جل جلاله، وليس الأمر رهناً بمنفعة مؤقتة، ويستمد هذا الخير أحقيته وشرعيته من التسليم لله، والإيمان أنه أحكم الحاكمين، خالق الإنسان والأعلم بما في صلاحه، مع التأكيد على عدم تعارض هذا الحق مع العقل السليم، ولا مع ما فيه مصلحة الإنسان وسعادته.

3 ـ إن النجاح مطلوب، والسعي والتنافس على فعل الخيرات مرغوب، فالمؤمن القوي أحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف؛ ولكن ينبغي أن يتخذ هذا السعي وسائل وذرائع تستظل بأوامر الشرع، وتلتزم بآدابه في سبيل الوصول إلى الغايات النبيلة، ولا يقبل الإسلام أبداً المبدأ الماكيافيللي.

4 ـ يتميز المجتمع الإسلامي بالإيثار وحب الخير للآخرين، والمؤمن لا يتم إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويمكن أن يضحي بمنافعه الشخصية في سبيل مصلحة أمته وسعادتها؛ بل تصل التضحية إلى النفس والمال أيضاً، ويعد هذا من أشد ما تفتقده المجتمعات البراغماتية.

5 ـ لا يقبل من المسلم الإيمان بالله عز وجل إن لم يكن عن اقتناع كامل، والمطلوب إيمان يهيمن على القلب والعقل والجوارح، ولا ينفع فيه التقليد أو الاعتماد على المنفعة فقط، والمؤمن يضحي بأعز ما يملك في سبيل مرضاة خالقه سبحانه؛ بل إنه يحرِّم على نفسه الكثير من متاع الدنيا في سبيل ذلك، وهي عقيدة مخالفة تماماً للإيمان البراغماتي الذي يدعو الإنسان إلى ترك عقيدته في حال تعارضها مع منفعته الشخصية.

أما إذا أردنا أسلمة البراغماتية ـ إن صح التعبير ـ أو الوصول إلى صيغة توافقية بين البراغماتية والإسلام، فيمكن توضيح صيغتها على النحو التالي:

خلق الله الإنسان وأكرمه بنعمة العقل وأرسل الله الرسل معلمين ومرشدين، والهدف الأسمى من ذلك هو عبادة الله والوصول إلى مرضاته، التي ستؤدي إلى النعيم في الدنيا والآخرة، وهو الحق الذي لا ريب فيه.

وهذه هي الغاية من الوجود، التي يجب على الإنسان أن يبذل لها الغالي والرخيص. ولا بد أن يُبتغى من أجلها كافة الوسائل، فكل وسيلة تؤدي إلى

هذه الغاية يجب استخدامها؛ لكن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، لذلك فالوسائل المتخذة لهذه الغاية لابد أن تكون كلها نبيلة تتناسب مع الغاية النبيلة.

وعندها سيتنافس المؤمنون في سبيل طاعة الله، وهذا التنافس سيشمل جميع مجالات الحياة المختلفة، من سياسة واقتصاد وتربية وتعليم وثقافة ومعرفة، وهكذا يتحقق المجتمع الإسلامي الذي يستظل بهدي الكتاب والسنة، والذي ينعم فيه الجميع بالخير والأمان، فتزدهر الحياة وتتقدم، وتتحقق المنفعة المنشودة للإنسان؛ لكنها منفعة لا تتعارض مع الشرع الحنيف؛ بل تمشي في ركابه، وتستظل بظله، فالله عز وجل هو العليم الحكيم الذي خلق الخلق ليربحوا عليه لا ليربح عليهم، فهو الغني والناس هم الفقراء إليه.

وهذه هي نقطة الالتقاء الوحيدة بين الإسلام والبراغماتية.

وخلاصة القول:

إن البراغماتية تختلف عن جميع ما سبقها من نظريات فلسفية، فهي أكثر واقعية وقرباً من حياة الناس، لكن الأخذ بها ـ وفق النظرة الأمريكية ـ أدى وسيؤدي إلى مهالك عظيمة يمتد تأثيرها ليشمل الجميع.

فهي تحول الإنسان إلى وحش كاسر، لا هم له إلا الحفاظ على بقائه ولو على حساب الآخرين، وليته يكتفي بذلك؛ بل إننا نراه يقتل ويسلب وينهب من باب الحرص على المنفعة، ولا حرج عليه في ذلك، فالغاية تبرر الوسيلة بزعمهم، وهكذا تضيق الأرض على الناس بما رحبت.

أما ما يحقق الأمان للبشرية، ويجلب لها المنفعة التي تحلم بها ـ ولا عيب في ذلك ـ فهو الإسلام، الذي لن يُقبل من أحد ابتغاء غيره، لأن فيه سعادة الدنيا والآخرة، سعادة الفرد والجماعة والأمة؛ بل والبشرية جمعاء إن هي رضيت به ديناً.